تجديد الحوار

وتداعيات الواقع العراقي – العربي المعاصر

د . ولاء مهدي محمد حسين

كلية التربية الأساسية الجامعة المستنصرية

تجديد الحوار وتداعيات الواقع العراقي – العربي المعاصر :

يعد تجديد الحوار (بوصفه ممارسة وأداة وأسلوب في التعامل مع الآخر) أحد أبرز التحديات التي يواجهها المثقف العراقي والعربي اليوم في خضم محاولته القيام بدوره الفاعل والمؤثر كأداة للتغيير والحراك الثقافي في المجتمعات العربية والشرقمتوسطية ؛ حيث تراجع وغاب الحوار البناء وساد منطق الحزب الواحد تارة والعنف السياسي الديني تارة أخرى ، هنا لابد لنا أولاً الوقوف عند دلالة الحوار وما الذي نريده بـ(الحوار) وهو مفهوم شامل أكتنفه شيء من الغموض لسعته وهلاميته .

نريد بالحوار هو الحديث الذي يدور بين طرفين حول موضوع محدد ولغايات محدودة وقد ينتهي بنتيجة معلومة تقنع الطرفين أو يسلم بها كلا الطرفان ، فالحوار في حد ذاته ممارسة كلامية تترجم في أغلب الأحيان الى فعل وسلوك إذا توصلت الى اقتناع الأطراف المتحاورة . وتتضمن أسلوباً في التعامل مع الآخر وفهمه والسماح له بأبداء رأيه وسماع هذا الرأي ومناقشته بالنتيجة الحوار هو منهجية هدفها تحويل الاختلاف الى ممارسة سلمية ونبذ العنف وفسح المجال للتعددية والتباين والتلون وإعطاء الآخر حق المشاركة والتعبير عن الذات لذا هو منهج في الفهم وأسلوب في طرح الآراء والتعامل مع الأشخاص والأشياء ليشمل كل جوانب الحياة .

ومما لا يخفي على القارئ الكريم أن معظم حواراتنا اليوم ومنذ ما يزيد على عقد من الزمن ذات طابع سجالي جدلي عم المستويات كافة ، السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية ... الخ . لذا عمدنا هنا الى تلخيص أسباب غيابه وتراجعه ثم تحديد أبرز الوسائل لإحياءه ورفده بمقومات القوة وتجديده وبعثه في ضوء تداعيات واقعنا العربي المتزايد التعقيد .

لتأصيل الحوار والممارسة الحوارية في مجتمعنا العراقي والعربي نسلط الضوء على حقيقة أساس هي أن الحوار لم يكن قط جديداً على المشهد الحضاري العراقي فالعراقي هو الرائد في ابتداعه كأسلوب لطرح الإفكار وحل المشكلات والنظر الى الأشياء والمفاضلة بينها وترجيح رأي ضد آخر واتخذه وسيلة للإقناع وحل النزاعات ومواجهة الآخر ، فلم تكن الحوارات السومرية والبابلية ضرباً

من الترف الفكري يرمي الى التسلية والامتاع بل عكست حالة حضارية جميلة في التعامل مع الاختلاف وطرح الآراء وحل المشكلات ، مثل حوارية (الراعي والفلاح والنخلة وشجرة الأثل والمفاضلة بين الصيف والشتاء)[1].

لم يغب الحوار عن الساحة العراقية يوماً فكان ينبض بالأفكار الجديدة ويغذيه التنوع الدائم في هذه البؤرة الحضارية الأولى ويستمر يتلون بألوان المشكلات والوافد من الأقوام والغزوات التي سرعان ما أخذت طابعاً عراقياً ونفح فيها العراق من روحه . ولعل أبرز مراحل ازدهار الحوارات كانت في عهد الدولة العربية الإسلامية أموية وعباسية وبشكل خاص البلاط العباسي الذي كان يرعى هذه الاختلافات ويوجهها بما يتلائم ومصلحة الدولة فازدهرت هذه الممارسة حتى عزى البعض أليها نشأة بعض العلوم الإسلامية كعلم الكلام [2] .

بدأ الحوار من أرض الرافدين وتغذى من هذه الربوع فلماذا انتكس وتراجع ؟ وما هو الحوار الذي غاب عن الساحة الفكرية والثقافية والسياسية ؟

وبالتأكيد الحوار بوصفه ممارسة ، يتجاوز القدرة على طرح الآراء وصياغتها بصورة مقنعة الى قبول الاختلاف والتجدد والتنوع والحيوية والتفاعل مع الآخر واستيعابه لذا أرتبط الحوار ارتباطاً صميمياً بالديمقراطية التي تضمن حقوق الفرد كما ارتبط بالحرية بوصفه ممارسة وأسلوب في الحياة .

أن نظرة فاحصة الى المجتمع العراقي والعربي المعاصر تبرز لنا عوائق وعقبات الحوار الحقيقي والتي ترتبط بخصوصية المرحلة الحالية وتعقيدات الوضع الدولي.

ويمكننا أن نلخص هذه العقبات في ثلاث قضايا أساس وهي ليست قطعاً كل معوقات الحوار وعقباته :

1 – التطرف والعنف السياسي والديني لدى الجماعات الإسلامية المتطرفة ولدى الحكومات .

2 – التصورات والأفكار التراتبية لدى الآخر والغرب ، ولدي الشعوب الشرق متوسطية.

3 – الهيمنة الإمبريالية الأمريكية الصهيونية العالمية والاحتلال الأمريكي للعراق والتواجد العسكري في المنطقة والتدخل في الشؤون الداخلية لدول المنطقة وتحول الصراع الى الجانب المسلح بالتالي نبذ الحوار وتخطية بمنطق القوة المرافق للطبيعة العسكرية والغطرسة الأمريكية . وهذه الفقرة تحتاج الى معالجتها ببحث مستقل يتناول الجانب الأيديولوجي للهيمنة الأمريكية – الصهيونية أو الأور – أمريكية في المنطقة وعلاقتها بالحوار وغيابه وسيادة منطق القوة .

التطرف والعنف السياسي والديني :

شهدت الساحة الفكرية والثقافية في الفكر العربي المعاصر تحولات عديدة ومنعطفات حرجة متباينة ، أبرزها وأهمها هي الفترة التي نشهدها الآن والتي تتسم بالانتقالية والتحول في جميع

المجالات وعلى مختلف الأصعدة والمستويات ، إذ نشهد تحولات في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما في المجالات الثقافية والفكرية وعلى المستوى المحلي والعربي والإقليمي والدولي في داخل الحركات والقوى السياسية والاجتماعية كما في داخل كيان الدولة والواقع المحيط بها[3] .

لعل أبرز سمات هذه المرحلة التداخل واللاتمايز وما يعرف بـ((الخطاب الانتقالي التداخلي)) الذي يشترك في إنتاجه الخطاب السياسي بمختلف تياراته وكذلك المثقف والباحث والى جانب التداخل واللاتوازن في المرحلة الانتقالية برزت في هذه المرحلة سلسلة المواجهات العنيفة التي تتسع دائرتها بين أنظمة متعبة ومرهقة بميراث الفوضى في التسيير والفساد السياسي والجماعات المسلحة التي ترفع الشعارات الخارجة عن الدولة والمناوءة لها .

يرافق ذلك ((الخطاب القومي)) الذي لم يعد فاعلاً في ربح المواطن سياسياً أو في بعض البلدان العربية نافعاً (لأنه استمد وجوده من حقبة ما قبل الاستقلال فاستنفذ كل طاقاته)[*] .

تنعكس هذه الخطابات بمفارقة انعكاسها سلباً على الدولة التي تتبناها ، إذ تمجد هذه الأيديولوجيا الوحدوية والمقاوماتية وتعطي أهمية لتاريخ الحرب والبطولات والفعل العنفي الذي يمنح الشرعية ويمجد (التضحية والموت) ؛ كما توظف الحكومات هذه الخطاب في قمع المعارضة وتضيق الحريات الفردية وتتخذه وسيلة للارتزاق السياسي[4].

ولكن أين مكان الحوار في خضم هذه العنف السياسي والعسكري ؟ بل هل بقي هناك مجال في مجتمع تمزقه الصراعات المتخذة من العنف أداة لها ؟ كان للحوار دور كبير وبناء في بداية اليقظة العربية مع ظهور الاتجاهات الإصلاحية الدينية والاتجاهات التجديدية التي بدأت مع طلائع القرن الماضي ، ثم ظهر المد الماركسي والتيار القومي وما رافقهما من حوارات ذات طابع سجالي يمكن أن نصفه بأنه صراع أيديولوجياً متنوعة ، دينياً وقومياً وسياسياً[*] .

لم يمنع ذلك من ظهور اتجاهات جديدة أدركت عقم هذه السجالات التي شغلت قرن كامل من الزمن وقامت على مقولة تأسيسية عليا (الله) الدين ، الوحي ، الإنسان... الخ)) واستغلت هذه الاتجاهات الجديدة المناهج الغربية في العلوم الإنسانية ووظفتها في تعميق الحوار وأثراءه[5].

لقد أصبح الحوار جزءاً لا ينفصم من هذه المرحلة خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي وحاولت الممارسة الحوارية أن تستوفي شروط الحوار الناجح من احترام الآخر واستيعابه والتحلي بقدر من سعة الأفق والديمقراطية والوصول الى نتائج مجدية ومفيدة لكلا الطرفين تردم الهوة بين المتحاورين .

لم تدم هذه الممارسة طويلاً ولم يسمح لها أن تتطور الى برامج عمل وهيئات تنفذ ماتم التوصل أليه ، فقد أطل عقد التسعينيات حاملاً أشكالاً جديدة من العنف المنظم الذي عززه وأذكاه

الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة ، الداعم للصهيونية التي حاربت الحوار وكل الممارسات الديمقراطية في دول المنطقة ، فضلاً عن تعسفهاوغطرستها ورفضها الحوار مع المقاومة الفلسطينية ، في خضم ، ذلك بدأ الصدع يتسع بين الحكومات (مع الأيديولوجيا القومية التي تتبناها) وبين الأحزاب والقوى الإسلامية ، سرعان ما تطور الى خلاف أكبر ثم (صراع) ف (صدام) ف (قطيعة) و (عجز عن الفهم) ثم تطورت الى (أيديولوجيا حربية) أغرقت الطرفين المتصارعين[6].

قامت لغة الحوار ، التي سادت الحقبة ، ولازالت امتداداتها حتى الآن ، على الجدل وتناسب الحوار البناء الذي أحيته بعض توجهات الفكر العربي المعاصر ، الجدل هو جزء من إفرازات مرحلة سابقة وتراث المنثور العربي الماضي في بعده المظلم (القرو-سطي) ممتزج في جانب منه بالتربية الأيديولوجية المرتبطة بالحالة (الشمولية أو التوتاليتارية[*]) (بما فيها من ملامح حزبية ضيقة ولا هويته مقنعة والنموذج السلفي والإقصائي الذي يرى في منهج القذف والتشهير واللجوء الى بذيئ اللفظ ، أمضى أداة للتحليل وأكثر محتويات العدة المعرفية تعالياً وترنسندتالية[*] ويحسبها أسطع برهاناً وأحدث نموذج تفسيري وأولاها مشروعية وتسويغاً) [7]. من عوائق الحوار في هذه الحقبة هي طبيعية الحوار نفسه الذي يغلب عليه الجدل بدلاً من البرهان كمحاولة اكتشافية فالجدل يرافقه الأطناب ويرمي الى الإقناع ولا يتوقف الأحين يحقق هدفه في التفوق على الخصم ، أما البرهان فيرمي الى عرض دليل معين أو تقديم تفسير محدد واضح ، وهذا الشكل هو الغالب على حواراتنا اليوم التي تشتعل فيها الأطراف المتحاورة كمن يتحرك في ساحة معركة تتقاطع فيهاالإدارات وتتوزع في ضوئها جغرافياً القوة والهيمنة[8].

مع ذلك لم تخلو الساحة الفكرية والثقافية السياسية الدينية من أصوات معتدلة تدعو الى عودة الحوار البناء ، إلا أن هذه الأصوات لم تسمع ليس لضعفها أو وهن حجتها ومنتحلوها بل لتعالي خطاب أعنف وأقسى هو ما يعرف بـ ((خطاب السيف)). [9]

خطاب السيف :

بدأ النقاش والحوار بين التيار الديني التجديدي الأصلاحي والتيارات الأخرى (والتي تضم التيارات القومية التي تمثل الدولة) حول تطبيق الشريعة الإسلامية . كما سبقت الإشارة ، منذ فترة مبكرة من اليقظة العربية وأثيرت موضوعات عديدة مثل الموقف من المحتل والاقتباس من الغرب ، والمناهج الدراسية ، وتحرير المرأة وحضور الإسلام والشريعة في الدولة القومية الحديثة العهد .

((فقد أكد الإسلاميون على أن تطبيق الشريعة مسألة غير قابلة للجدل ، وأن التطبيقات الخاطئة في بعض التجارب في هذا البلد أو ذلك ليست حجة على القضية فضلاً عن عدم تعارض ذلك مع الحداثة والمعاصرة)) وقد لقيت هذه الأفكار معارضة شديدة من بعض دعاة التيار القومي

والحكومات . وهكذا بدأت سلسلة الاضطهادات التي قامت بها الدول والحكومات للتيارات وكانت هذه الممارسات إحدى جملة عوامل أساسية أدت الى ظهور ((خطاب السيف)) أو ((العنف الديني)) في الساحة الفكرية والسياسية والاجتماعية وعلى كافة الأصعدة في مجتمعاتنا العربية المعاصرة[10].

لا يخفى على القارئ الكريم أن الإسلام والفكر الإسلامي المعتدل لم يكن غائباً يوماً عن الساحة العربية والشرقمتوسطية منذ العهود المظلمة (فترة الحكم العثماني) وحتى يومنا هذا ، فالإسلام ليس مجرد دين بل هو دين وثقافة وتاريخ وهوية حضارية وثقافية ونظام عمل وإسلوب حياة ومنهاج أمة وهو أكثر الأمور ثباتاً في المتخيل الجمعي للأمة الإسلامية. مع ذلك نحن لن نتناول هذا الجانب الواسع من الإسلام رغم اعتماده من قبل الجماهير الساحقة لأنه يقوم على الحوار ويتعايش مع الاختلاف ويستوعبه ويتلون بألوان المجتمعات المختلفة على خصوصيتها .

وعوداً على بدء لنتفحص بنية خطاب السيف وآلياته وما ينتج عنه واحد هو التطرف ولكن يبقى للاختلاف التاريخي دوره في تميز كل فترة تاريخية. أن هذه الخصوصية التي يعتمدها خطاب السيف تستمد قوتها من التاريخ ، أي تعتمد صور الجهاد القديمة وتبلغ أوجها في محاكاة أو اعتماد الآيات القرآنية القتالية وكأنها تنزل عليهم الآن ويشبهون معاركهم ضد الدولة وضد مخاليفهم من التيارات والفرق الأخرى بمعارك الرسول ، فهذه النصوص والصور تنشط وتستمد قوتها من العنف المحاكاتي في المتخيل الجماعي .

لقد تحولت هذه النصوص الى قوة ثقافية لدى متبنيها ومبادئ يجب الدفاععنها ، بل الاستشهاد من أجلها ، أن هذا الخطاب ناجم عن عوامل عديدة متشابكة مع خصوصية كل بلد عربي ، ولعل أبرز هذه العوامل التي تساعد على تنشيطها وتغذيتها استمرار الأنظمة العربية الاستبدادية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية ، كما أنه يتغذى على تصورات جمعية وتراتيبات ثقافية تقدس الموت والأضحية ومن (ثقافة المقاومة) والحرب التي تغذيها الحكومات أيضاً لتستمد هذه الحكومات شرعيتها التاريخية وبذلك تساهم في خلق العنف السياسي بصور غير مباشرة . و ((حين يحضر المقدس في الساحة السياسية تكون الحيلة والفتنة والخطأ[*] ، يعطي لمعتقدي المطلق قناعات راسخة متصلبة في تصفية الذين يختلفون معهم ، وتنشط آلية التفكير المنغلق الضيق ، فيصبح الوهم هو الحقيقة ، والقتل جهاداً والاجتهاد بدعة والاختلاف عذاباً .

التاريخ للعنف السياسي والبحث في أسبابه وآلياته ضروري لنا اليوم لتأسيس خطاب سلمي مدني يخدم الإنسان العربي ، يستند الى مرجعية بعض نصوص ثقافتنا العربية – الإسلامية التي تعلي من قيمة الإنسان . فالنص القرآني يكرم ((الآدمية)) ويعد قتل النفسة قتل للبشرية جمعاء [11] .

إن الخطاب السيف يتقاطع مع الحوار ويرفضه ويعتمد شكل محدد من الحوار هو الجدل . ويقوم على اليات (القتل والكفروالخروج عن الإسلام ، والحد ، والمرتد، الجهاد ، الاستشهاد) ويدرس المختصون أسباب على وفق عدة اتجاهات أبرزها :

1 – اتجاه يربط العنف السياسي (الإرهاب) بالظروف الاجتماعية السياسية القاهرة التي يمر بها الوطن العربي ، وهي تزداد تدهوراً على مر السنين ، طبعاً عامل له تأثيره القوي في السلوك العنفي السياسي غير أن الاكتفاء بهذا التفسير سوف يجعلنا نغفل عوامل نفسية وثقافية أخرى قد تكون أكثر قدرة على فهم الظاهرة .

2 – اتجاه يستند في تفسيراته على المرجعيات الغربية وبعض هذه المرجعيات واقع تحت سطوة الإعلام الغربي الذي ربط الإرهاب بالإسلام أو بالمواطن العربي والمسلم.

3 – اتجاه يرجع هذا العنف الى تأويلات فاسدة للنص الديني أي أن قيادات هذه الجماعات تؤول القرآن الكريم تأويلاً غير سليم ، ومن هنا تكفيرها الإسلامي للمجتمع والدولة وإعلان الحرب ضدهما ، وهذا الاتجاه نجده في كتابات ودراسات بعض مفكري الإسلامي المعاصرين[12].

4 – ظهور المحتل بوصفه قوة في المنطقة تحاول أن تفرض فكرها وحداثتها بالقوة ، وقد وجدت بعض الاتجاهات الإسلامية أن الكفاح المسلح وخطاب السيف هو الحل الأمثل لمواجهة طغيان الغرب وغطرسته . كما عد البعض أن ظهور هذا الخطاب هو رد فعل على هجمة الغرب ضد الإسلام والعالم الإسلامي .

التراتيبات الدينية والحضارية :

أن عجزنا عن تحقيق حوار ناجح مع الغرب لا يرتبط بنا فقط فالغرب أوربي – أمريكي أو (الآخر) له نصيب كبير في إعاقة الحوار وعدم تحقيق تواصل حقيقي مع العالم الشرق متوسطي ولن نطرح هنا دور الغرب الاستعماري والامبريالي ومحاولته عدم سماع الأخر وفهمه ونشر ثقافة أحادية قوامها (الليبرالية) الغربية متبعة كافة الوسائل والأساليب الاعلامية الغربية من صحافة وأدب وفن وتكنولوجيا ثقافة ، تقوم على العولمة وهجمتها القاسية على الشرق ثقافة لا تعتقد بحق الأخر في التعبير عن ذاته بل لا ترى في الأخر غير تابع وفي أحسن الأحوال مستهلك لبضاعتها وقيمها وأفكارها التي تقوم على معيار (الربح والخسارة) وقد سبق أن أشرنا الى أن هذه الأفكار والمفاهيم قد أثارت القوى الإسلامية المتشددة التي شعرت بخطرها وتهديدها للإسلام والمجتمع الإسلامي .

ومن البديهي أن تشيع أدبيات عديدة تروج لهذه الهجمة مثل (صدام الحضارات) لصموئيل هنتنغتن و(نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما وغيرها من الكتب والمؤلفات والخطابات التي احيطت

بهالة أكبر مما تستحق لدى الغرب وطبعاً لدى بعض كتاب ومفكري الشرقمتوسطي الـذين يرقـصون على طبول الغرب .

ومع أن الغرب يصرح أنه من قيم ما بعد الحداثة تفتيت البنى الكبيرة للسرد الكبيـر (الأفكـار والمذاهب الشمولية كالماركسية مثلاً) (*) وإحلال الحكاية الصغيرة أو السرد الصغير محلها وتأكيـدها على الاختلاف ودور الأخر في تحقيق هذا الاختلاف وتغذيته وإنعاشه إلا أن هذه الأمور لا تتجـاوز الدعوات العريضة التي لا تغادر الحناجر لتجد لها محلاً وتطبيقاً على أرض الواقع ، وفي مقابل ذلـك دفن الحوار في مقبرة (مكافحة الارهاب) الأمريكية الصنع .

إلا أن ما يعيق الحوار أيضاً هو ما يعرف بـ(التراتيبات الدينية والحضارية) وتعني ((وجود قناعة واعية أو غير واعية في العقل الجمعي لمعظم – أن لم يكن كل – المجموعات البشرية . والأمم والشعوب التابعة لدين معين ، ، أو حضارة معينة ، بالاعتلاء تلك المجموعة المرتبة الأولى في سـلم التجمعات البشرية وامتلاكها أفضلية سـرمدية علـى الآخـرين مـصدرها الـين ، أو الاثنيـة ، أو الحضارة))، أن التراتيبات الحضارية لدى الغرب تحولت ومنذ مرحلة الاستشراق التـي صـاحبت الاستعمار الغربي الى نظرة استعلائية مقيتة تعيق كل حوار بين الطرفين ، ومما يغذي هـذه النزعـة المراكز البحثية الغربية العديدة التي تحاول إبراز عيوب المجتمع الشرقمتوسطي وترد العنف السياسي الى البيئة العربية الإسلامية والى بنية العقلية العربية[13].

ولمواجهة التراتيبات – سواء كانت دينية أم حضارية – لدى الغرب لدينا اتجاهين في التعامل مع هذه الظاهرة :

الأول : يقوم على مفهوم (الكونية) ويرمي الى ((الحكم على سلوكيات البشر من خلال تبنـي نظـرة كونية ، يتوافق عليها جميع البشر وترى أن)) الإنسان واحد في جوهره النهائي بغض النظـر عـن جنسه ولونه ودينه واثنيته ، وأن الخلوص الى ذلك الجوهر ــ يتجاوز التأثيرات الخارجية ، خاصـة السياسي والقومي والثقافي الخاص منها ويرمي الى الوصول الى المنظومة القيمية المجردة ذاتها التي تتفق في تقييمها لما هو (خير) وما هو (شر) . ويؤخذ على هذا الاتجاه بأنه اتجاه ((طوباوي ومثـالي لا يعكس حياة البشر القائمة على التعدد والتنوع في القيم والثقافات وهو تعدد لا مناص منه)) [14].

أما الاتجاه الآخر :

يقوم مفهموم ((الخصوصية الثقافية)) ويقول أنه ليس بالأمكان أعتماد مرجعية قيمية واحـدة لكل البشر اذ أنهم يختلفون ، ولهم مرجعيات متنوعة ومختلفة ، وفي كثير من الأحيان متصارعة لهذا فالوسيلة الأفضل للتعاون هي الأحترام المتبادل للخصوصيات الثقافيـة لكـل الـشعوب والجماعـات والاقرار بها .ولأتفاق على عدم تدخل أي طرف في شؤون الطرف الآخر بهدف تغييرها أو النـأثير

فيها. يرى البعض في هذا الأتجاه واقعي عملي ، وينتقده البعض الآخر على أساس يشدد على الحدود الفاصلة بين الثقافات ويجمدها على ما هي عليه ويتيح بيئة مواتية لنظريات التميز والتفاضل والصدام بين هذه الثقافات [15].

أساليب تجديد الحوار وأحيائه :

بعد أن لخصنا العقبات التي تواجه الحوار وبينا أبرز الحلول للعودة بجدالاتنا الى أرض الحوار البناء بوصف ممارسة لحل مشكلاتنا وطرح اراءنا والتعامل مع الآخر،أن حجر الزاوية في أقامة أي حوار بنائاً مع الآخر هو أن ننظر الى ذاتنا وتراثنا وتقاليدنا وعاداتنا بخصوصيتها وتفردها وأن نستكشفها ونسمح لها بالظهور لكي نتمكن من أن نتجاوز الآخر ونواجهه ، يجب أن نحيي هويتنا الوطنية ونكتشف ملامحها بوضوح وبأعتزاز . ف ((أول شروط تحقيق العلاقة السوية مع الغرب ، أن نعترف بتمايزنا عنه ليس من أجل العداء والخصام ، وأنما بالعكس من أجل تجنب نظرتنا الآحادية أليه سلباً أو أيجاباً ، وبالتالي تشوه علاقتنا بذواتنا الفردية والجماعية ، أن أعترافنا بشخصيتنا وخصوصيتنا يؤدي الى الاعتراف بخصوصية الغرب وشخصيته المتميزة ، وهذا وحدة الكفيل بخلق علاقة مساواة وتبادل حضاري ولتحقيق ذلك وتخطي أشكالية النظر للغرب لا بد من خلق نظرة محايدة وهذه تتأتى من ابتداع ((تيار وسط)) يحترم الخصوصية الدينية و الحضارؤية والشعبية ، وفي الوقت نفسه ينفتح على علوم الغرب وتقنياته ومعارفه مع الحفاظ على نظرة نقدية أنسانية تميز بين عيوب الغرب ومحاسنه)) [16].

لا بد لنا من أحياء الهوية الوطنية لكل بلد عربي من أجل تأكيد الذات وتأصلها ، مع التأكيد على الروابط التاريخية بين الدول الغربية فيما بينها وبين العالم الشرق متوسطي وضرورة نشر الوطنية لحل المشاكل التي تواجه الدولة وتتعلق بـ الصراع بين الفئات المتعددة تحت مظلة الدولة الواحدة من الأديان والقوميات ، والأجناس والنحل والأحزاب وتعميق دور المثقف كفاعل ومؤثر في مواجهة هذه القضايا وأذكاء الثقافة والمثقفين عبر فتح المؤسسات المعنية بذلك مثل دور النشر والمجلات والدوريات المختلفة لمحاورة ومعالجة هذه القضايا وتوسيع آفاق الحوارات ، بدلاً من الحل السياسي والعمل الحزبي المخابراتي لدى الدول والحكومات التي تصرف المبالغ الطائلة وتهدر الاموال على المخابرات وأجهزة الحكومة للسيطرة على هذه الحركات والطوائف في حين كان من الأجدي توجيه الجهود لتثقيف الشعب وتعزيز المعرفة بهويته الوطنية وبماهيته وتفصيلاتها .

والتعامل بقليل مع الحذر مع ما تنشره دور النشر ومراكز البحوث الغربية مع ضرورة الاطلاع عليها[17].

ما زال المثقف العربي في ظل ممارسات الحكومات والانظمة والاحزاب يعيش حالة من القلق والتأزم والتردد في اتخاذ موقف سليم وحازم منطقياً ، بل أن أغلبهم يتعرض لانتكاسات أو تحولات تصيب بعضهم في أخريات أيامهم فيعمد الى مناقضة أراءه السابقة أو الرجوع عنها[18].

ويمكن أن ندرك صعوبة هذا الوضع وانعكاسه على المؤسسات الثقافية التي يديرها بعض المثقفين أو النخبة منهم .

ولتحقيق الحوار لابد لنا من إزالة عقبة رئيسة تعرقله ، هي جنوح السلطة في وطننا العربي وعالمنا الشرقمتوسطي الى تقييد حرية التعبير والحوار ، وتوجيه الحوارات الى خدمة أحزابها وانظتها الشمولية ، الأمر الذي يولد مناخاً من العنف يترعرع فيه التطرف ويشتد الأمر حين تعمد السلطات والحكومات الى فرض نفسها بالقوة فتملئ السجون بعناصر هذا التيار ومتبني هذا الفكر أو تلك الطائفة أو ذاك الحزب . لابد لنا من خلق أجواء ودية وصحيحة للحوار وفهم الأخر وتجنب إصدار الأحكام المسبقة ، ثم النظر الى قضايا المستقبل والعمل على رسم خطوطه بالاتفاق مع جميع الأطراف[19].

قبل ذلك كله وحجر الزاوية والأساس لتجديد الحوار هو إنهاء الاحتلال والوجود العسكري الاستعماري وإزالة أسباب السخط لدى الشعوب والأمم من خلال إزالة أسباب الظلم الاجتماعي والسياسي وتحقيق الديمقراطية فمعركة تجديد الحوار هي معركة تحقيق الديمقراطية وإقرارها كأداة أساسية للتعامل مع الآخر .

أن ما ذكرته من حلول في طيات هذه الوريقات القليلة ليست قطعاً هي كل الحلول ، لتكون فاعلة لابد أن تجد طريقها الى التطبيق على أرض الواقع فما نفع الأفكار أن ظلت في بطون الكتب وما نفع الدواء إذا لم يتعاطاه المريض ، وبغير التطبيق والعمل على التطبيق تستمر سجالاتنا ومشكلاتنا الى غير نهاية .

رغم كم العنف والتعقيد والتداخل والتنوع الذي تشهده مرحلتنا المعاصرة لازالت امتلك قدراً كبيراً من التفاؤل بأن المستقبل القريب سيحمل بذور التأخي وحل المشكلات ، لأن الأطراف المتصارعة ستدرك عدم جدوى العنف وتعود أخيراً الى جادة الحوار ، ولأن التغير هو قانون الوجود الاساس .

الهوامش:

(1) انظر : كريمر ، صموئيل ، من الواح سومر ، ترجمة طه باقر ، مكتبة المثنى بغداد، ط1 ، ص225 – 237 .

(2) أنظر : في علم الكلام ، احمد محمود صبحي ، ج1 ، مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية ، ط4 ، 1982 ، عوامل نشأة علم الكلام ، ص14 – 18 .

(3) هشام جعفر ، الاسلاميون والمسألة السياسية ، (حسن الترابي وآخرون) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1 ، 2003 ، ص237 .

* باستثناء العراق ولبنان من هذه الحالة إذ نجح الخطاب المقاومي في تجيش المشاعر الوطنية لمقارعة المحتل على الصعيدين السياسي والعسكري .

(4) بومدين بوزيد ، الاسلاميون والمسألة السياسية ، (حسن الترابي وآخرون) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1 ، 2003 ، ص200 .

* ترجم فيما بعد الى عنف سياسي وصدام عسكري وانقلابات سياسية أخذت بعضها طابعاً دموياً ، ولعل الاعنف الأن هو خطاب السيف والعنف الديني التكفيري الذي تميز بصورته الخارجية (نسبة الى فرقة الخوارج الاسلامية) .

(5) انظر : سرمد الطائي ، صخب في بداية القرن ...سياقات التغيير النقدي ومفارقات الاحتجاج التوفيقي ، مجلة الوعي المعاصر ، العدد 12 ، السنة الثالثة ، فريق 2003 م /1423 هـ ، مؤسسة الفلاح للنشر والتوزيع – لبنان ، ص112 .

(6) طارق البشري ، الحوار القومي الديني ، طارق البشري وآخرون ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1 ، 1989 ، ص7 .

* التوتاليتارية وتعني الانظمة الشمولية والكلمة ذات دلالة سلبية فهي شمولية تلغي الآخر ولا تستوعبه داخلها .

* ترنسنتالية : المصطلح يعود الى الفيلسوف الالماني كانط ويريد به المتعالي عن الواقع المجرد المحسوس .

(7) سرمد الطائي ، صخب في بدايات القرن ... ، ص123 .

(8) انظر : أيضاً ، ص126 – 127 .

(9) انظر : طارق البشري وآخرون ، الحوار القومي الديني ، ص12 .

(10) انظر : بومدين بوزيد ، الاسلاميون والمسألة السياسية ، ص216 . وقد تطرقنا الى العتف الاسلامي السياسي في بحثنا المعنون (التطرف الاسلامي والوعي الزائف ، مجلة الحكمة ، العدد 44 بيت الحكمة ، بغداد ، ص2006 .

* قد يفيدنا في هذا الجانب من الاسلام والفكر الاسلامي في مواجهة خطاب السيف وبيان تهافت وضعف وهشاشة المتطرف الراديكالي من الإسلام ، إلا أنه لا يتسع المجال في هذا المحل الى ذلك ، نأمل أن نخصص له بحثاً منفرداً في فرصة قادمة.

(11) بوزيد ، الإسلاميون والمسألة السياسية ، ص211–121 .

إن تأكيدنا على خطاب السيف والعنف الديني السياسي لا يعني قبولنا للحملة الإعلامية الغربية التي تحاول لصق الإرهاب بالإسلام لأهداف توسعية استعمارية إمبريالية ، فالإسلام دين التسامح وقد سبقت الإشارة الى الإسلام المعتدل . مع ذلك نلفت انتباه القارئ الى أن الغرب بهجته الحداثوية العسكرية ومحاولته فرض هيمنته وأفكاره وأيديولوجيته كانات حد البواعث التي غدت الإرهاب والعنف الديني.

(12) من الترتيبات الدينية الصلبة قناعة اليهود بأنهم (شعب الله المختار) وقناعة المسيحيين بأنهم (ملح الأرض ونور العالم) وقناعة المسلمين بأنهم (خير أمة أخرجت للناس) سورة آل عمران / الآية110 . ومن الترتيبات الحضارية الصلبة أيضاً شعور الألمان بتفوق الجنس الجرماني وشعور الأوربيين بالتفوق على الثقافات والحضارات الأخرى وشعور الأمريكيين في الوقت الحالي بأنهم أكثر الجميع تقدماً وعلماً وحرية .

أنظر : الإسلاميون والمسألة السياسية ، حسن الترابي وآخرون ، ص217–218. نشير الى إننا سبق وأن تناولنا التراتيبات الدينية الإسلامية وما آلت أليه من خطاب السيف .

* (السرد الكبير) مفهوم ابتدعه المفكر الفرنسي جان فرانسوا ليوتارد ويريد به الفرضية أو الحكاية التي تتحكم في وعينا ومعرفتنا وإرادتنا وتكون مطلقة مهيمنة وشمولية تعتمد لتفسير كل الظواهر مثل الأيديولوجياً ، أنظر فاتنة حمدي ، الفلسفة العربية المعاصرة وأفكار ما بعد حداثية في المعرفة والعلم ، مجلة دراسات فلسفية، بيت الحكمة العدد 18 ، السنة 2005 ، ص3 .

(13) ص120 أيضاً .

(14) أنظر : علي الحروب ، الأسلاميون والمسألة السياسية ، ص220–221 .

(15) المصدر السابق ، ص221 .

(16) سليم مطر ، الذات الجريحة ، أشكالات الهوية في العراق والعالم العربي الشرقمتوسطي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2 ، 2000 ، ص25 – 26.

(17) أنظر : سليم مطر ، جدل الهويات عرب أكراد تركمان سريان يزيدية ، صراع الانتماءات في العراق ، والشرق الأوسط ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص29 .

(18) أحمد صادق الديجاني ، الحوار الديني ، طارق البشري وآخرين ، ص66 .

(19) أنظر : طارق البشري وآخرون ، الحوار القومي الديني ، ص66 .

المصادر :

1 – كريمر ، صموئيل ، من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر ، ط1 ، مكتبة المثنى بغداد.

2 – صبحي ،أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج1 ، ص4 ، المؤسسة الثقافية الجامعية ، الإسكندرية ، 1982 .

3 – جعفر ، هشام ، الإسلاميون والمسألة السياسية ، حسن الترابي وآخرون ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2003 .

4 – الطائي ، سرمد ، صخب في بداية القرن ... سياقات التغير النقدي ومفارقات الاحتجاج التوفيقي ، مجلة الوعي المعاصر ، العدد 12 ، السنة الثالثة ، خريف 2003م / 1423هـ ، المؤسسة الفلاح للنشر والتوزيع – لبنان .

5 – البشري ، طارق ةآخرون ، الحوار القومي الديني ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1989 .

6 – الجبوري ، ولاء مهدي ، التطرف الإسلامي والوعي الزائف ، مجلة الحكمة العدد 44 ، بيت الحكمة بغداد ، 2006 .

7 – حمدي ، فاتنة ، الفلسفة العربية المعاصرة وأفكار ما بعد حداثة في المعرفة والعلم، مجلة دراسات فلسفية ، العدد 18 ، السنة 2005 .

8 – مطر ، سليم ، الذات الجريحة – إشكالات الهوية في العراق والعالم العربي الشرقموسطي ، ط2، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، بيروت ، 2000 .

9 – مطر ، سليم ، جدل الهويات – عرب أكراد تركمان سيريان يزيدية صراع الانتماءات في العراق والشرق الأوسط ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .